ثنائية السنكروني والدياكروني في البحث اللهجي

دراسة جغرافية لغوية

منير مسعي

جامعة العربي التبسي تبسة الجزائر

ملخص

تُعنى هذه الدراسة بوصف ثنائية السنكروني والدياكروني، وكيفية استعمال كلّ منهما في البحوث التي تعالج اللهجات، من خلال ابراز البعد المفاهيمي للمصطلحين في العلوم اللغوية التطبيقية الميدانية، وذلك من خلال تسليط الضوء على الجغرافيا اللغوية في الدراسات الآنية، وكذا في الدراسات التعاقبية.

الكلمات المفاتيح: الجغرافيا اللغوية – السنكروني – الدياكروني – لهجات.

Abstract

This study is concerned with describing the doubles of synchronie and diachronie, and how to use each of them in research dealing with dialects, by righlighting the conceptual dimension of the two terms in field applied linguistics, and this is through the linguistics geography approach synchronical and diachronical dimensions.

Keywords: Linguistics Geography - Synchronie - Diachronie - Dialects.

مقدمة

تعتبر البحوث الخاصة بمعالجة اللهجات من أهمّ الدراسات التطبيقية في علوم اللغة، إذ لا تكون دراسة اللهجات دون بحث ميداني فاحص لمختلف الخصائص اللغوية للهجات، وإنّ الجغرافيا اللغوية من أبرز العلوم التي تتناول اللهجات بتدقيق كبير، ودراسة واضحة المعالم، وقد عنى هذا العلم باهتمام كبير لدى الغرب، ونال المكانة الأولى في علم اللهجات لديهم.

ولمّا كانت الجغرافيا اللغوية من الدراسات اللغوية التطبيقية، فإنها أفضل ميدان يمكن أن تتجلّى فيه حقيقة المفاهيم العلمية، خاصة تلك التي لم يرسو حدّها بعد، فثنائية السنكروني والدياكروني من المفاهيم اللغوية التي يشقى الباحث في تناولها بشكلها الصحيح، في كثير من الأحيان، ويصعب عليه توظيفها كما ينبغي لذا كانت هذه التساؤلات محطّ اهتمام الباحث في الجغرافيا اللغوية: ماهي الجغرافيا اللغوية وهل هي اللسانيات الجغرافية نفسها؟ ماهو المفهوم الذي يستطيع الباحث العمل به في الدراسات التطبيقية التي تتناول اللهجات، إذا كانت هذه الدراسات سنكرونية أو دياكرونية أو كلاهما معا؟ وما هي الآليات الاجرائية التي يعتمد عليها الباحث في الجغرافيا اللغوية، أثناء مقاربته الآنية أو التعاقبية أو كلاهما معا؟

وللاجابة عن التساؤلات السابقة، يمكن الانطلاق من فرضيات أهمّها أنّ الجغرافيا اللغوية من أهمّ فروع علم اللغة التطبيقي، الذي يتفرّع منه علم اللهجات، وأنّ الدراسة الجغرافية اللغوية هي دراسة لا يمكن للنظرية بها أن تسبق التجربة، وأنّ هذا النوع من المقاربات هو مجال خصب لبروز المفاهيم اللغوية بحقيقتها، أثناء التطبيق الفعلي لها، ومن خلال هذا يمكن الوقوف على حدّ لمفهوم السانكروني ومفهوم الدياكروني في الدراسات اللغوية التطبيقية.

ويتّخذ هذا الموضوع أهمية بالغة، في كونه محطّ اهتمام وانشغال الباحثين في علم اللهجات خاصة، والباحثين في اللسانيات التطبيقية وكذا اللسانيات الاجتماعية أيضا، وقد وقف هذا البحث على أهمّ النقاط الأساسة التي تضع بين يدي الباحث، كيفية الاستعمال الممنهج لمفهومي السانكروني والدياكروني.

واعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي في تناول القضايا اللسانية، وأيضا على المنهج التفسيري لتلك القضايا التي تناولها البحث بعد تجارب ميدانية كثيرة في علم الجغرافيا اللغوية، ما خلق دوافع ذاتية أهمها وضع خلاصة التجربة الذاتية في هذا المجال وإن كانت بسيطة ولا تقارن بتجارب الباحثين في العالم

العربي والغربي، ودوافع موضوعية أبرزها هو تسليط الضوء على مفهومين مبهمين نوعا ما لدى المختصين بالدراسات التطبيقية في علم اللغة.

وقد احتوى هذا البحث أربعة مباحث، تناول المبحث الأوّل مفهوم الجغرافيا اللغوية، بينما تكلّم المبحث الثاني عن مفهوم السنكروني في علم اللغة، وكذا كان المبحث الثالث الذي تحدّث عن مفهوم الدياكروني في علم اللغة، بينما تناول المبحث الرابع الآليات الاجرائية في توظيف المنهجين السنكروني والدياكروني في الجغرافيا اللغوية، وخاتمة احتوت أهمّ نتائج هذا البحث.

1. مفهوم الجغرافيا اللغوية

تُعدّ الجغرافيا اللغوية من العلوم الحديثة التي تعنى بدراسة اللهجات، وفق أسس علمية تطبيقة دقيقة، وطالما اختلط على الدارسين والباحثين اللغويين العرب مفهومي الجغرافيا اللغوية Linguistics geography و اللسانيات الجغرافية Geolinguistics، بسبب ما يتخبّط فيه البحث العربي اليوم في فوضى المصطلح، واشكالية توافق الترجمة والمفاهيم الواردة، فكلا العلمان نتاج غربي تماما، واستيراد المفهومين بمصطلحهما الغربي، أدّى إلى تضارب المفهومين.

فاللسانيات الجغرافية هي دراسة للغات العالم، ينصبّ اهتمامها على المواضيع التي تخصّ"بيان عدد المتكلمين لكل لغة وتوزيعها الجغرافي، ولحدّ ما وصفها، ومن هنا فإنّ علم اللغة الجغرافي يمكن أن يسير خطوة إلى الأمام فيربط اللغات بالعوامل الاقتصادية والسياسية وغيرها، ويكوّن تقديرات لمدى الأهمية الفعلية لكلّ لغة واستعمالاتها التي يمكن أن توضع فيها."[1] أمّا بالنسبة للجغرافيا اللغوية فهي "انجاز يعمل على تحديد الظواهر الأساسية في الاختلاف اللهجي، والتنوّع اللغوي، وتسجيل النماذج الأدبية والفلكلورية، وقياس حدّة انتشار الظواهر المختلفة، ودرجة أصحابها من الحضارة والبداوة والثقافة، وهذا الجانب يهتمّ خاصة بالمناطق ذات التعدّد اللغوي، أو المناطق التي لها الخصوصيات اللغوية."[2] ومن التعريفين السابقين يتّضح أنّ الفرق بين المفهومين هو أنّ اللسانيات الجغرافية علم يهتمّ باللغات العالمية بشكل خاص، وتوزّعها الجغرافي دون الخوض أكثر في العملية الوصفية والتحليلية لخصائص تلك اللغات، بل يربط توزّعها الجغرافي بأبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية، بينما علم الجغرافيا اللغوية يعنى باللهجات فقط، ويصفها بدقّة في مستويات الأداء اللساني، ويصف توزّعها الجغرافي ويربط أسباب اختلاف اللهجات داخل لغة واحدة أو داخل لهجة أمّ واحدة؛ بأبعاد اثنية وثقافية وتاريخية.

ويصف حلمي خليل علم الجغرافيا اللغوية فيقول: "وهو يدرس اللغات واللهجات ويصنفها، طبقا للمواقع الجغرافية لكلّ لهجة أو لغة، بالنظر إلى خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، التي تفرّق لغة عن لغة أو لهجة عن لهجة، أو ما يسمى باللهجات الاقليمية Regional Dialects، في بلد واحد أو عدّة بلدان تتكلم لغة واحدة، وهو يستند في ذلك إلى علم اللهجات النظري Dialectology، وغالبا ما تنتهي هذه الدراسة في علم اللغة الجغرافي إلى وضع الأطالس اللغوية، حيث توزّع التنوّعات اللغوية وفق رموز خاصة على خرائط جغرافية."[3] وبهذا التعريف يتضح لنا الخلط والخطأ اللذان وقع فيهما اللغويون العرب، فقد وصف الباحث علم اللغة الجغرافي بما يتميّز به علم الجغرافيا اللغوية، وهكذا فإنّ الدرس العربي يظلّ في متاهة تضارب المفاهيم.

وإذا أردنا قطع الشكّ باليقين، فعلينا الرجوع إلى أصحاب هذين العلمين، أي الباحثون الغربيون، وماريو باي Mario Pay يفصل في هذا الأمر تماما إذ يقول: "ويطلق مصطلح الجغرافيا اللغوية Linguistics Geography على الدراسات اللهجية المؤسسة على الأطلس اللغوي، وهذا الاسم غير موفّق، حيث يجعل معظم الناس غير المتخصصين يظنون أنه يعني توزيع اللغات في العالم، أو ما سميناه بعلم اللغة الجغرافي Geolinguistics."[4] وهنا يوضّح أنّ الجغرافيا اللغوية مقاربة تعالج الاشكالات اللهجية خاصة، وتعتمد بداية على الأطلس اللغوي كمدوّنة، بينما اللسانيات الجغرافية تدرس اللغات ويكون الأطلس اللغوي نتاجا لتلك الدراسة، فهي أقرب إلى الجغرافيا منها إلى علم اللغة.

ومنه فالجغرافيا اللغوية فرع من علم اللهجات وهي "في أبسط غاياتها الاشتغال بالبحث في اختلاف اللهجات داخل لغة واحدة كبيرة (وقد يحدث ذلك كما يلاحظ ديكرو دون وعي من المستعملين) وغالبا ما ينصرف الاختلاف في نطق حرف واحد من اللغة، لأسباب تعود أساسا إلى طبيعة البيئة ووعورتها وسهولتها، أو إلى اقتراب بعض مستعملي اللغة من حدود بعينها."[5] ويظهر الفرق بين المفهومين مما سبق، حيث يمكن حدّ مفهوم الجغرافيا اللغوية، في أنّها منهج أكثر منها علما قائما بذاته، فهي آليات اجرائية وخطوات علمية يتّبعها الباحث في اللهجات، الذي يدرس مجموعة من اللهجات داخل لغة واحدة، أو داخل لهجة أمّ واحدة، فيقارب الفروق اللغوية لخصائص تلك اللهجات في مستويات الأداء اللساني جغرافيا، ولا يتمّ وصف وتحليل تلك الخصائص إلا بعد تأسيس أطلس لهجي، تتوزّع فيه تلك الفروق جغرافيا في خرائط تحمل رموز الكتابة الفونيتيكية، التي تصف التنوّع والتوزّع المقصود دراسته.

وتتسع الجغرافيا اللغوية من كونها فرعا من علم اللهجات، وكونها منهجا علميا لتكون جسرا يربط علم اللهجات بغيره من العلوم الاجتماعية، خاصة الاثنولوجيا، فالدراسة الجغرافية اللغوية تعتمد على البحث الاثنوغرافي كثيرا في توضيح أسباب الفروق اللغوية بين اللهجات، فتضع روابط عديدة بعلوم شتّى كاللسانيات الاثنية وعلم التاريخ وعلم النفس الاجتماعي، معتمدة في ذلك على الأبعاد الثقافية والاثنية والتاريخية وكذا الاجتماعية، التي تفرض نفسها في المقاربات الخاصة باللهجات، لكن وفق مبدأ علم اللغة الذي أرساه دي سوسير من قبل؛ وهو دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها، فلا ينطلق الباحث من السياقات الخارجية تلك، بل ينطلق من دراسة الأنساق الداخلية للهجات وصول إلى ما ارتبطت به من سياقات وعوامل خارجية، وهذا هو العمل اللغوي الذي يتميّز عن العمل الاجتماعي أو الجغرافي، أو التاريخي أو الأنثروبولوجي خاصة.

2. السنكروني في علم اللغة

ظهر مفهوم السنكروني أو التزامنية أو الآنية كما يسميها بعض الباحثين العرب، مع الفرضيات والنظريات والآراء التي جاء بهاد ي سوسير كقواعد أساسة للسانيات العامة، وقد وضع الرجل بين أيدينا ثنائيات، يرى أنّها أسس لابدّ منها إذا أردنا أن نكون علميين إلى حدّ كبير في مقاربة اللغة، ومن بين تلك الثنائيات نجد مفهومي علم اللغة السنكروني وعلم اللغة الدياكروني.

أمّا علم اللغة السنكروني أي التزامني فيقول دي سوسير De suassure: "سيتناول علم اللغة التزامني العلاقات المنطقية والسايكولوجية التي تربط بين العناصر المتزامنة وتكوّن نظاما في العقل الجماعي للمتكلمين."[6] فهذه المقاربة التي يراها دي سوسير يجب أن "تعالج الموقف اللساني في لحظة بعينها من الزمان، أي أنها تعنى بوصف الحالة القائمة للغة ما، وتتجلى اللغة في هذه الحالة في هيئة نظام نسقي يعيش في الوعي اللغوي لمجتمع بعينه."[7] فعلم اللغة السنكروني هو دراسة لغوية آنية لحقبة زمانية معينة ومحدّدة ولجماعة لغوية واحدة، وهذا يتخذ شكل البُعد أكثر من اتخاذه شكل العلم، فهذا البعد الذي "يعنى بدراسة المستوى اللغوي لعصر معين اعتمادا على الاستقراء الشامل للأمثلة، ويستبعد أي تفسيرات تاريخية للتغيرات تطرأ عليه."[8] إنّما يصبح في الميدان منهجا بصفة عامة لأسلوب المقاربة ونوعها، وإن وصفه مبتدعه دي سوسير بأنّه علم، فإنّه في الحياة التطبيقية بعيدا عن النظرية هو منهج، فللعلم فرضياته ونظرياته، بينما للمنهج أسسه وخطواته وسننه.

ويمكن حدّ مفهوم للسنكروني مما سبق، فهو منهج واضح المعالم في علم اللغة، يحصر الدراسة في اللغة ولأجلها، في حقبة زمانية محدّدة، ويسبر أغوارها محلّلا صفاتها وخصائصها في مستويات الأداء اللغوي، دون اللجوء إلى التبرير التاريخي، بل هي مقاربة داخلية في أنساق اللغة لا تخرج منها، ويمكن القول بأنّ المنهج السنكروني أو الآني إنّما هو المنهج الوصفي في حدّ ذاته، بطابعه البنيوي في علم اللغة.

3. الدياكروني في علم اللغة

يؤسس دي سوسير De saussure للدياكروني قائلا: "أمّا علم اللغة الزمني فيدرس العلاقات التي تربط العناصر التي تتعاقب زمنيا ولا يدركها العقل الجماعي، وكلّ عنصر يحلّ محلّ العنصر الآخر من غير أن تؤلّف هذه العناصر نظاما."[9] فهو يحدّد العمل اللساني الذي يقارب لغة ما زمانيا، حيث يكون الدراسة لعناصر متعاقبة دون وعي الجماعة الناطقة بتلك اللغة، فيفرز الباحث تلك التغيرات الحاصلة في عناصر اللغة المتعاقبة في مستويات الأداء اللساني، وهذا يحتاج إلى توفّر مدوّنات لكلّ مرحلة من المراحل التاريخية المدروسة.

كما تتخذ الدراسات منهجا وصفيا دقيقا يتحوّل بعدها إلى المقارنة، وهنا فالبعد التاريخي هو "الذي يتتبّع تطوّر اللغة عبر الزمن، ويتّسم بدمج المعطيات اللغوية المختلفة، دون أن يصنفها واقعيا."[10] فالتصنيف يعني الوجود واقعيا، لكن التغيرات التي تطرأ على اللغة تعاقبيا إنما هي ماضية وليست بالواقع اليوم، لذلك فالوصف التاريخي لأي لغة من اللغات "يتتبّع التطوّر التاريخي لهذه اللغة ويسجل التغييرات التي تحدث فيها بين نقطتين زمنيتين متتاليتين."[11] وإذ يأخذ تتبّع التطوّرات التاريخية صفة وشكل المنهج، فإنّ الدياكروني كالسنكروني عبارة عن منهج متّبع في الدراسات اللغوية، وإن كانت الدراسة السنكرونية أسبق تطبيقيا فلأنّ نقطة الانطلاق في الدراسات التاريخية تبدأ من المقاربة الآنية لكلّ مرحلة زمانيا على حدا، وتكون الدراسات التاريخية وصفية لحدّ ما لما تراكم دون وعي الجماعة اللغوية، بين حقبتين زمانيتين أو أحقاب متتالية متى توفّرت السّبل لذلك.

ومنه فإنّ علم اللغة السنكروني وعلم اللغة الدياكروني، في نظر اللسانيين عبارة عن منهجين متّبعين خلال الدراسات اللغوية، فيطلق اللسانيون "على الأوّل اسم المنهج الوصفي أو البنيوي الذي يهدف إلى تحديد المبادئ الأساسية للنظام المتزامن، في حين يطلق على الثاني اسم المنهج التاريخي الذي يهدف بدوره إلى البحث في العناصر المتتابعة زمانيا."[12] وهنا نعي جيدا أنّ المنهج السنكروني الآني أو التزامني كما

يسميه بعض الباحثين، نظريا وتطبيقيا يختلف عن المنهج الدياكروني التاريخي أو التعاقبي كما يفضّل بعض المختصين تسميته، لكن يجمع بينهما عنصر الوصف، فحتى الدراسات التاريخية للعناصر المتعاقبة والمتغيّرة لا تنفكّ عن الوصف بداية والتحليل.

4. الآليات الاجرائية في توظيف المنهجين في الجغرافيا اللغوية

4. 1. المقاربة السنكرونية في الجغرافيا اللغوية:

تتّسم الجغرافيا اللغوية بكونها علما تطبيقيا ميدانيا، تغلب عليه الدراسات الآنية، وقلما نجد دراسة تاريخية في توزيع اللهجات جغرافيا، لذا فإنّ مفهوم السنكروني كآليات اجرائية يمكن الوقوف عليه خلال المقاربات التطبيقية هذه، ويوضح دي سوسير De saussure الدراسة الآنية في علوم اللغة قائلا: "الدراسة التزامنية لها زاوية نظر واحدة، وهي زاوية نظر المتكلمين، والأسلوب الذي تتبعه يتكون من جمع الأدلّة من المتكلمين."[13] فالرجل هنا يبين لنا كيفية النظر إلى المادة المراد دراستها آنيا، والتوجّه مباشرة إلى النظام اللغوي الثابت حسب رأيه، لكن اللغة لا تتكوّن دوما من أنساق منتظمة يسهل تتبّعها، كما هو الحال في اللهجات، ويقول جاكوبسون R. Jacobson: "يرغمنا التطور التام للجغرافيا اللسانية _اللسانيات المساحية_ ودراسة الصلات بين اللغات المتجاورة، على مراعاة النموذج الزمكاني للاجراءات اللفظية بوصفه الجزء المكمّل لكل نظام أيديوسنكروني idiosynchronic."[14] فهو يشير إلى دراسة متعدّدة وفق سنكروني متعدّد، حسب خصائص كل منطقة وأهلها، فالنظام الأيديوسنكروني هو تلك الخصائص الفكرية والثقافية والاثنية والتاريخية والجغرافية، لذلك النظام اللغوي الحالي الذي يختلف بدوره عن الأنظمة اللغوية المجاورة له، حتّى يكوّن كل نظام مع الآخر تكاملا، ممّا يوجب على الباحث في اللهجات أن يراعي ذلك الاختلاف، دون أن يفترض نظاما واحدا وتاما لتلك اللهجات.

كما ينتقد جيفري سامسون J. Samson طرح دي سوسير أيضا ويقول: "يتحدّث ديسوسير عن الطبيعة العشوائية للعمليات التزامنية كما لو كانت حقيقة بدهية يقبلها الناس بمجرّد سماعها، لكن هذا يخالف الواقع، فمن الممكن أن ندرك أن التبدّلات التاريخية ربما تنجم، ولو جزئيا على الأقل، عن التأثيرات التي تتركها على النظام التزامني، بحيث لا تحدث مثلا تبدّلات قد تؤدي إلى قدر كبير من اللبس."[15] فهو ينتقد افتراض العبثية في تشكّل الأنظمة اللغوية، والتي يتبنّاها دي سوسير، ويربط سامسون بين المقاربة الآنية

والتعاقبية من حيث العلاقة التي يكتشفها الباحث ميدانيا، بين تلك الخصائص اللغوية التي ثبتت والتي اضمحلّت والتي تغيّرت.

فطرح سامسون Samson أمر واقعي فعلا، يراه الباحث خلال عملية مقاربة اللهجات، فالأنظمة اللغوية للهجات التي ندرسها في وضعها الآني، ليست إلا نتاجا عن تمخّضات عوامل كثيرة عبر أزمنة كثيرة متتالية، لذا فإنّ اللغة في وضعها الآني تساهم بشكل غير ملحوظ في بناء التغيّرات اللغوية المتعاقبة عبر مراحل زمانية متتالية.

أي أنّ التبدّلات الذي أشار إليها العالِم، هي نتيجة الحالة السنكرونية للاستعمال اللغوي، لذا وجب على الباحث الجغرافي اللغوي أن لا يهمل الاختلافات البسيطة بين فئات المستعملين، وبين المستويات اللغوية في لهجة واحدة ولهجات عديدة، فالباحث قد يأخذ عيّنة من المجتمع أو فئة تكون محطّ دراسته وأنموذجا لها، وهذا لا يخدم الشمولية في المقاربة اللغوية السنكرونية، فالأجدر أن يدرس المستوى اللهجي الثابت التداول، أي الاستعمال الشامل والمنتشر بين جميع فئات المجتمع، فاللهجات تحتاج إلى فئات وإلى مستويات للدراسة أيضا، وهذا ما يغفل عنه كثيرون.

ثمّ إنّ ليونز J. Lions يرى أنّ العلاقة بين الدراسة الآنية والتاريخية موجودة ضمنيا، فيقول: "ومبدأ أولوية الوصف التزامني يفهم منه عادة أنّه يحمل ما تضمّن أنّه بينما يعتمد الوصف التزامني على الوصف التاريخي، فإنّ الوصف التاريخي يفترض سلفا التحليل التزامني السابق للحالات المتتابعة التي تمرّ من خلالها اللغة في مجرى تطورها التاريخي، وربما لم يكن هذا وجهة نظر سوسير لكنه يترتب بالضرورة على ما يعدّ افتراضات مقبولة الآن على نطاق واسع حول طبيعة النظم اللغوية."[16] هذه الاجراءات تتبادلها المناهج فيما بينها، فالمنهج السنكروني يعتمد على الاستقراء والتصنيف والتقعيد، والتحليل وفق ما تترتب عليه الأنظمة اللغوية وخصائصها آنيا في لحظة بعينها، وهذا يخدم الدراسة التاريخية والمنهج الدياكروني، الذي يتّكل على ما أفرزته نتائج المنهج الآني.

ودراسة اللهجات وتوزّعها آنيا هي وصفية بنيوية، بغضّ النظر عن تراكم العناصر اللغوية داخل كل لهجة تاريخيا، بينما دراستها تاريخيا بحتاج إلى التأصيل Etymology وهو "مصطلح يستخدم تقليديا لدراسة أصول صيغ الكلمات ومعانيها، وبدلا من أن يأخذ التأصيل طرائقه ومناهجه من علم اللغة (وبصفة

خاصة علم الدلالة) فإنّه قد يبدو فرعا من علم اللغة التاريخي."[17] وهذا يخصّ المنهج التعاقبي المعتمد في مقاربة اللهجات.

إذن فالمنهج السنكروني في الجغرافيا اللغوية، هو نفسه المنهج الوصفي، حيث تدرس بنيات اللهجات وخصائصها اللغوية دراسة وصفية، لكن في إطار مقارنة بينها لأنّ الجغرافيا اللغوية تبحث في اختلافات الخصائص اللغوية بين لهجات داخل لغة واحدة، أو داخل لهجة واحدة، ولا تبحث في وصف جميع خصائص اللهجات اللغوية، وهذا ما يميّزها عن علم اللهجات العام، وبذلك فإنّ المنهج السنكروني في المقاربات الجغرافية اللغوية، هو دراسات وصفية ومقارنة بين خصائص اللهجات وتوزيعها جغرافيا، دون التعرّض إلى أسباب تشكّلها أو تفسيرها.

4. 2. المقاربة الدياكرونية في الجغرافيا اللغوية:

اعتمدت الدراسات التي تعنى باللهجات العربية تاريخيا، على المنهج التاريخي الذي يربط الكلمات بأصولها في اللغة العربية الفصحى، وفق تتبّع سطحي وغير مرضٍ لمراحل تطور الخصائص اللغوية لتلك الكلمات، وإن كانت أغلب الدراسات تناولت المستوى المعجمي الدلالي أو المستوى النحوي للهجات، وعلاقته باللغة العربية الفصحى باعتبارها اللغة المعيارية.

وفي المقابل لا نجد دراسة جغرافية لغوية تاريخية، تبحث في نشأة وتطوّر الخصائص اللسانية للهجة ما أو مجموعة لهجات، وتوزّعها الجغرافي تاريخيا، فالبحث العربي يفتقر تماما لمثل هذه الدراسات، في الوقت الذي يركز عليه البحث الغربي والبحث العبري بالذات، فالمخابر اللغوية في الكيان الصهيوني تعمل ليلا ونهارا في الجغرافيا اللغوية التاريخية، لأهمية هذا النوع من الأبحاث اللسانية وعلاقته بالمجتمعات وبناء الأمم واستراتيجية الدول والشعوب والأنظمة.

إنّ المقاربة الدياكرونية في الجغرافيا اللغوية، تتسع جدا لتفرض على الباحث الاستعانة بعلوم اخرى، قد تبدو بعيدة عن علم اللغة، لأنّ هذا النوع من الدراسات يسلك مسلكا ذا أهمية في أبعاد مختلفة، مثل البعد التاريخي والبعد الاثني، وكذا البعد الثقافي، مما يربط البحث اللغوي في هذه الحالة بعلم الاثنوغرافيا اللغوية، لأنّ الباحث سيحتاج إلى جمع كمّ من المعلومات، لا يجدها مدوّنة كما هي في حالة اللغات خاصة المعيارية منها، فالحال في اللهجات يختلف، فنادرا ما تدوّن اللهجات، لذا يعتمد الباحث على النقل الشفوي خاصة المادة العلمية الشعرية، باعتبار الشعر الشعبي هو حال ناطقة لكلّ أمّة في مرحلة معينة، لأنّ "الأدب

الشفهي هو الجزء من التراث الذي يتّخذ شكلا حسب شيفرة خاصة بكلّ مجتمع وكلّ لغة، والاستناد إلى موروث ثقافي، وهو يحمل في نفس الوقت تاريخ الجماعة ومعتقداتها وتصوراتها الرمزية وأنماطها الثقافية ورؤيتها للعالم الطبيعي."[18] هذا يساعد الباحث في مرحلة جمع المعلومات من الفترات الزمانية المتعاقبة وما حفظه الأدب الشعبي من خصائص لغوية لكل مرحلة.

فالأشعار الشعبية تحفظ الخصائص الصوتية التي تميّزت بها كل لهجة لكل فترة زمانية، والخصائص الصوتية هي أهمّ عنصر يمكن الاعتماد عليه في عملية التحليل، وكذا فهي العنصر المفقود في الدراسات التاريخية التقليدية للهجات، لأنّ المستويات التركيبي والمعجمي والدلالي موجودة ويمكن الوقوف عليها بمراحل زمانية معينة، بينما يصعب الوقوف على الخصائص الصوتية لمراحل تاريخية ماضية.

ونضرب مثالا بلهجة حسناوة بولاية برج بوعريريج، إذا أردنا معرفة الخصائص اللغوية لهذه اللهجة لمرحلة الاحتلال الفرنسي، والمرحلة التي تسبقها أي الوجود العثماني بالمنطقة، فما علينا إلا جمع الأشعار الشعبية لكلّ مرحلة من تلك المراحل، ونقلها شفويا وليس كتابيا، لأنّ النقل الكتابي يفقد الخصائص الصوتية ميزتها، بينما النقل الشفوي يحفظ للخصائص ميزاتها وانفراداتها، ولأنّ انتقال تلك الخصائص من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر يفقدها كثيرا من أصالتها، فإنّ المستوى الصوتي لا يمكن دراسته إلا بالاعتماد على السماع فقط.

وبهذا سيلاحظ الباحث الاختلاف الواضح بين لهجة حسناوة في العهد العثماني، ولهجة حسناوة في عهد الاحتلال الفرنسي وكذا اختلافها كثيرا في هذا العصر، هذا فقط في مرحلة جمع المعلومات اللغوية وتصنيفها، أمّا المرحلة التي تليها فهي ما يميّز الجغرافيا اللغوية عن الدراسات اللهجية التقليدية، وهي مرحلة البحث في تاريخ انتقال خصائص تلك اللهجة جغرافيا.

فالدراسة الجغرافية اللغوية للهجات تاريخيا، هي تتبّع تاريخي جغرافي لانتقال الخصائص اللسانية الثابتة لكل لهجة، وتوثيق جغرافي تاريخي للخصائص اللغوية الطارئة والمتغيرة والمضمحلة، وهذا البحث يحتاج أيضا إلى الاعتماد على علم الجغرافيا التاريخية، الذي يرى بعض الباحثين أنّه "دراسة ما قبل التاريخ أو دراسة جغرافية لأي فترة تاريخية اخرى تحتوي على أدلّة تاريخية."[19] بينما يرى آخرون أنّ الجغرافيا التاريخية "تهتمّ بدراسة تأثير البيئة الجغرافية على مجرى الحوادث التاريخية، ومثل هذا التعريف يؤكّد أيضا الصلة بين الجغرافيا والتاريخ."[20] وهذا العلم يهتمّ أيضا بعلم اللغة بشكل عام "وعن طريق التحليل اللغوي

يتمكّن دارس الجغرافيا التاريخية من التعرّف على الانسان في الفترات التاريخية المختلفة، فاللغة هي وسيلة الحفاظ على الحضارة ونقلها من جيل إلى آخر."[21] وحاجة اللغويين تتّفق مع حاجة الباحثين في الجغرافيا التاريخية، فالباحث الجغرافي اللغوي لابدّ له من الوقوف على أهمّ المراحل التاريخية التي تطوّرت فيها اللهجات المدروسة، وتوزّعها الجغرافي في كلّ مرحلة، بالاعتماد على يتدفّق من معلومات من خلال الجغرافيا التاريخية، تلك المعلومات التي يوظّفها اللغوي من خلال فرز المعطيات الاثنوغرافية للفئة المدروسة، أي التوزّع الاثني الجغرافي لكل مرحلة تاريخية، يجعل من معرفة انتقال اللهجات جغرافيا في مراحل تاريخية مختلفة أمرا يسيرا.

وهذه المقاربة أي الجغرافية اللغوية دياكرونيا، هي دراسة صعبة جدّا وتحتاج إلى وقت طويل من البحث، وإلى تركيز ودقّة من الباحثين، وإلى تظافر جهود وتكاتف بين مختصين في مجالات مختلفة من العلوم، ذلك لأنّ البحث الجغرافي اللغوي الدياكروني هو بحث لوجيستي، تعتمد عليه الدول منذ الحرب العالمية الأولى، فتدرس الشعوب وتاريخها وكاريزما المجتمعات، ويندر هذا البحث أو ينعدم في عالمنا العربي للأسف.

خاتمة

من خلال ما تناوله هذا البحث لمفهوم السانكروني والدياكروني وتوظيفهما في علم الجغرافيا اللغوية، نستخلص مجموعة من النتائج والمعلومات أهمها:

_ اختلاف الجغرافيا اللغوية عن اللسانيات الجغرافية معنى ومفهوما، فالأولى تُعنى بتوزيع اللهجات جغرافيا ووصفها وتحليل خصائصها، بينما الثانية تدرس توزّع اللغات العالمية دون وصف كثير لخصائصها.

_ تأسيس دي سوسير لمفهومي السنكروني والدياكروني باعتبارهما علمان لغويان، بينما اتخذ الباحثون من بعده منحى آخر بتناول هذين المفهومين حسبما اقتضته التجربة والميدان.

_ اتخاذ مفهوم السنكروني في الدراسات التطبيقية الخاصة بمعالجة اللهجات وتوزيعها الجغرافي، حدّ المنهج البنيوي الواصف لخصائص اللهجات اللغوية والمقارن بينها.

_ اتخاذ مفهوم الدياكروني بدوره في الجغرافيا اللغوية حدّ الجسر الذي يربط بين علم اللغة التاريخي، الذي يهتمّ بتطوّر الخصائص اللغوية للهجات المدروسة في مراحل زمانية معينة، وبين علم الجغرافيا

التاريخية، الذي يبرز للباحث اللغوي المناطق الجغرافية التي كانت تهيمن عليها لهجات ما خلال فترة زمانية ما. كما يتخذ حدّ المنهج التاريخي المتتبع لتطوّر الخصائص اللغوية، والذي يربط بين علم اللهجات واثنولوجيا التواصل أو الاثنولوجيا اللغوية.

_ لا تنفصل الدراسات الدياكرونية عن السنكرونية، فهي تعتمد على الجانب الوصفي المسبق خلال المقاربات، بينما الدراسات السانكرونية لا تتصل بالبحث الدياكروني خلال المقاربة.

_ المقاربة الدياكرونية في الجغرافيا اللغوية، هي آليات واجراءات واسعة ومتشعّبة، تستند إلى علوم عديدة لغوية وغير لغوية، وعلى الباحث في هذا النوع من الدراسات أن يكون ملمّا بكثير من الجوانب والأبعاد المتّصلة بالموضوع.

_ وأهمّ ما يمكن استنتاجه مما سبق، هو أنّ عزل اللغة أثناء دراستها عن كل سياق خارجي، وافتراض كونها كيانا مستقلا موجودا بذاته ولذاته، هو أمر يحتاج إلى إعادة نظر، فالبحث التطبيقي في كلّ علم لغوي تطبيقي يكسر قيودا كثيرا كانت سننا علمية مفروضة، فهنا في علم الجغرافيا اللغوية لا يمكن دراسة اللغة بمعزل عن السياقات الخارجية، والتي تساعد كثيرا في دراسة اللغة في ذاتها.

_ أهمية الجغرافيا اللغوية في الدراسات اللغوية وغير اللغوية، إذ يولي العالم اليوم لهذا العلم اهتماما بالغا بينما يفقد الأهمية بالوطن العربي، بالرغم من التنوع اللهجي في العالم العربي والاتساع الجغرافي الكبير، اللذان يسمحان للباحث اللغوي بالابحار والتمتّع في دراسة اللهجات العربية المعاصرة وتوزيعها جغرافيا.

قائمة المصادر والمراجع

1_ باي ماريو، أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عمر، ط1، عالم الكتب، مصر، ص 217.

2_ بلعيد صالح، دروس في اللسانيات التطبيقية، ط3، دار هومة، الجزائر، ص 13.

3_ خليل حلمي، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2002، ص 78.

4_ باي ماريو، مرجع سابق، ص 134.

5_ مرداسي الجودي، اللسانيات الجغرافية وأثرها في توحيد دلالة الكلمات القرآنية، مجلة الأثر، ع22، الجزائر، 2015، ص 27.

6_ دي سوسير فردينان، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، ط2، دار آفاق عربية، العراق، 1985، ص 117.

7_ بوقرة نعمان، المدارس اللسانية المعاصر، مكتبة الآداب، مصر، 2003، ص 80.

8_ دراج أحمد عبد العزيز، الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغوية، مكتبة الرشد ناشرون، السعودية، 2002، ص 79-80.

9_ دي سوسير فردينان، مرجع سابق، 117.

10_ دراج أحمد عبد العزيز، مرجع سابق، ص 79.

11_ ليونز جون، اللغة وعلم اللغة، تر: مصطفى التوني، ج1، ط1، دار النهضة العربية، مصر، 1987، ص 46.

12_ بوقرة نعمان، مرجع سابق، ص 80.

13_ دي سوسير فردينان، مرجع سابق، ص 108.

14_ جاكوبسون رومان، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، تر: علي حاكم صالح، حسن ناظم، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2002، ص 38.

15_ سامسون جيفري، مدارس اللسانيات _التسابق والتطور_، تر: محمد زيادة كبة، جامعة الملك سعود، السعوية، 1998، ص 34.

16_ ليونز جون، مرجع سابق، ص 78.

17_ المرجع نفسه، ص 75.

18_ بونت بيار، إيزار ميشال وآخرون، معجم الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد"، لبنان، 2011، ص 45.

19_ محمد محمد الفتحي بكير، الجغرافيا التاريخية _دراسة أصولية تطبيقية_، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999، ص 02-03.

20_ المرجع نفسه، ص 03.

21_ المرجع نفسه، ص 09-10.